وإنَّ لكُمْ في الأنعامِ لَعِبْرَةُ

إنّ نِعمَةَ الأنعامِ تبرُزُ في بيئةٍ بسيطةٍ كالبيئةِ العربيةِ التي نزلَ فيها القرآنُ الكريمُ، وتظهَرُ كذلكَ في كُلِّ بيئةٍ على شاكلتِها حتى اليومَ، وهي نعمةٌ كبيرةٌ لا حياةَ للناسِ دونَها، والأنعامُ المُتعارَفُ عليها في جزيرةِ العرب هي: الإبلُ، والبقرُ، والضأنُ، والمَعزُ.

وقد ألهمُ اللهُ تباركَ وتعالى البَشرَ إلى وسائلِ الاستفادةِ من (أوبارِها وأشعارِها وأصوافِها وجُلودِها) في صناعةِ الملابسِ الدافئةِ، والمساكنِ الآمنةِ، والمَفارشِ، والستائرِ، والآلاتِ، والأواني وغيرها من الأمتعةِ، بالإضافةِ إلى الانتفاعِ بـ: ألبانِها في الشُّربِ، وتصنيعِ (الأجبانِ، والسَّمْنِ، والزُّبدةِ، والقَشدَةِ)، وبـ: لُحومِها في التغذيةِ الصحيةِ المليئةِ بالبروتيناتِ، والمعادنِ النافعةِ اللازمةِ للبقاءِ والاستمرارِ؛ فانظُر كيف انبَجَسَتْ من النِّعمةِ الواحدةِ مزايا وعطايا ومنافعُ وأنعامٌ كثيرةٌ.

بل إنَّ الطريقةَ التي يَخرجُ بها اللبنُ من ضُروعِ الأنعامِ مدهشةٌ؛ فالأنزيماتُ الهاضِمةُ تُحوِّلُ الطعامَ الذي تأكلُه الأنعامُ إلى أربعةِ أشياءَ:

* دَمٍ يصعدُ إلى القلبِ ليقومُ بضخِّه ميكانيكياً إلى الشرايينِ والعُروقِ؛
* ولبنٍ يجري في الضُّروعِ،
* وبَولٍ يتجمعُ في المثانةِ،
* وفَرثٍ ينحَدِرُ إلى الأمعاءِ، وبينَها برزخٌ من قُدرةِ اللهِ تعالى؛ بحيث لا يبغي الدمُ والفرثُ والبولُ على اللبنِ فيغيِّرَ (لَونَهُ، أو طَعمَه، أو رائحتَه)، وإنَّما يَخرجُ (لَبناً سائغاً للشاربينَ) صافياً أبيضَ اللونِ، شهيَّ المذاقِ! فسُبحانَ اللهِ ما أعظمَ قُدرته! وألطفَ حِكمته!.

لقد عاشَ الإنسان دهْراً وهو يمشي على قدمَيه، ويعتمدُ في كسْبِه وفلاحَة أرضه على يديه، ثمُّ اهتدى إلى تسخير تلك الأنعامِ في أعمالِه، وفي حَملِ الأمتعةِ الثقيلة إلى الأماكنِ البعيدةِ التي لولاها لم يكُن له أن يبلُغَها إلاّ بِشقِّ الأنفُس.

ولولا أنْ سخَّرَها اللّهُ لنا لاحتَجْنا بدلَ الجَملِ الواحد، أو الدابَّة الواحدة إلى العُصبَة أُولي القوَّة منَ الرجال يحملونَ أثقالَنا وأحمالَنا، ولاستفرغَ ذلك منّا أوقاتَنا وطاقاتنا، ولَصدَّنا عن مَصالحنا الأُخرى؛ فأعاننا اللّهُ تعالى رأفةً منهُ ورحمةً بهذه السُّفُنِ البرِّيَّة (الأنعام)، وجعلَ لنا فيها من المنافعِ الكثيرةِ ما لا يُحصيها إلاّ هو سُبحانه جلَّ جلالُه قال تعالى: {وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} {النحل: ٧}.

وتذليلُ الأنعامِ وتسخيرُها للإنسان – وفيها ما هو أضخمُ منهُ بنيةً، وأشدُّ منهُ قوَّةً – نعمةٌ طائلةٌ، ومنّةٌ خارقةٌ فائقةٌ فوقَ العادة، وتَستحقُّ منا كُلَّ الثناءِ والتقدير؛ لأنْ نَقفَ بكلِّ إجلالٍ وتقديرٍ، وتواضُعٍ وتعظيمٍ للخالقِ الذي أنشأها بهذا التركيبِ البديعِ، وتلكَ الطبيعة السهلة الصبُورة على التعبِ والجوعِ والعطشِ، والخاليةِ من الشراسةِ والضراوةِ والعداوةِ والنُّفرة؛ فلله الحمدُ عددَ ما خَلَقَ وذرأَ وبرَأَ.

أمَّا المنافعُ الكماليةُ الزائدةُ على مُجرَّد تلبية ضرورات الحياة واحتياجاتها المُلحَّة من (طعامٍ، وشرابٍ، وكساءٍ، وركُوبٍ، ومأوىً)؛ فتتمثَّلُ في البَهجة التي تغمُرُ نَفْسَ الإنسان، وتملأُ وجدانَه حالَ مُراقبَته لمَنظرِ الأنعام وهي تغْدُو مُجتمعةً مُتآلفةً في الصباحِ الباكرِ سارحةً في مراعي اللهِ الواسعة، وحينَ تروحُ بطاناً (مُمتلئةَ البُطون والضُّروعِ) في المساءِ عائدةً إلى مَرابضِها.. لا شك أنَّ هذا المشهدَ الجَماليَّ يُلقي على فؤاد مَنْ يراهُ انطباعاً أخّاذاً جميلاً هادئاً.. وأهلُ الأريافِ والبوادي يُدركُونَ هذا الإحساسَ العجيبَ أكثرَ ممّا يُدركه أهلُ المدينة.

ولماذا يا تُرى يُقدِّمُ القرآنُ الكريمُ (لام) الملكيَّة على الظرفية في قوله تعالى: {وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ} [النحل:٦]، و{لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ} [النحل:٥]، و{وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ} [الأعراف:١٠]؟ لِمَ لمْ يَقُلْ (وفيها لكم..)؟

لأنَّ اللّهَ سُبحانَه وتعالى يعلمُ أنَّ الإنسانَ مَغروزٌ في فِطرته حبُّ المِلْكيَّة؛ ولذلك قدَّمَ الملكيَّةَ على الظرفية ليَشعُرَ الإنسانُ بالأمانِ والاستقرار؛ إذ لا قيمةَ للمِلْكية إذا كان هناكَ (خوفٌ، وفزعٌ، وهلعٌ وقلقٌ) من أنْ تُتَخَطَّفَ ملكيَّتُه من بين يديه.

لا قيمةَ للعملِ ومُرتَّبِه إذا كان العاملُ يشبعُ يوماً، ويجوعُ أُسبوعاً. وأيُّ قيمةٍ للراتبِ المُتآكلِ في ظلِّ الأوضاعِ الاقتصاديةِ التي لا تزالُ مُتعثِّرةً! والتي لا تكادُ تنهضُ حتى تكبو، ولا تكادُ تمضي حتى تقفَ مُتسمِّرةً في مكانها! ويا ليتها تسمَّرتْ! بل رجعَت القهقرى إلى الخلف دُرّاً وإلى الوراءِ سرّاً!.

ولا يكفي أنْ تُعطي للناسِ كوبونات تشجيعية كمُكافآتٍ لِشراءِ بعضِ الحاجيات بأسعارٍ مُخفضَّة؛ ليأكُلوا ويأمَنوا شرَّ الجوعِ، ولا يكفي أنْ يُقالَ للناسِ: اعملُوا ليعمَلُوا ويأمنُوا شرَّ البطالة، وإنمّا ينبغي أنْ تُهيَّأ تلك الاحتياجاتُ للمُواطنينَ بالأسعارِ المَعقولةِ التي تتناسبُ مع حجمِ مُدخلاتِهم الشهريةِ أو اليومية، وأنْ تُهيأَ فُرصُ العملِ على قدرِ

الموارد البشرية الشاغرة؛ فإنْ لم نفعلْ ذلك.. فقد اتَّخذنا الناسَ هُزُواً، وكانت دعواتُنا الإصلاحيةُ التطمينيَّةُ ومناهجُنا الاقتصاديَّةُ نوعاً من العَبَث؛ كالذي يُلقي حبَّات القمحِ القليلة لِسربٍ من الطيورِ الجائعة، فما هي إلاّ لحظاتٌ حتى يقعَ (الزِّحامُ، والخِصامُ، والشِّقاقُ، والنِّزاعُ، والاصطِدامُ) ومن ثَمَّ يفترقُ الناسُ فريقين: سُعداءَ بالوظيفة، وهم قِلَّةُ القلَّة، وأبطالُ مسلسلِ (البطالةِ المُقنَّعة)، وأشقياءَ بالبطالةِ، وهم الكثرةُ المُتكاثرةُ، وأبطالُ مُسلسلِ (العُنوسة العُمّاليَّة).

والغريبُ العجيبُ أنْ تَسمعَ هذه الدعواتِ التطمينيةَ في جوٍّ مُختنقٍ بمُشكلَةِ (الغذاءِ والتموينِ، والبطالةِ والترهُّلِ، والفسادِ الإداريِّ، ومُعضلَةِ قسمةِ الوظائفِ القليلة) المُتاحة على مُخرَجاتِ التعليمِ بأعداده الغفيرةِ المُتحَمِّسة، ولا يُفكِّرُ مَنْ يُنادُونَ بهذه الدعواتِ ويَكتبُونَها ويَبثُّونَها؛ في الوقتِ الذي ترى فيه أنَّ حوادثَ حياتنا اليوميَّة تنقضُ ما يقولونَهُ نقْضاً، وأنّه تقعُ على كاهلِهم مسؤوليةُ إدارةِ الأزمَةِ بين الناسِ بالقسطِ، وتمكينُ هؤلاءِ المُؤهَّلينَ من أنْ يأخُذَ كلُّ واحدٍ منهُم نصيبَه (حقَّهُ) الضئيلَ من المُتاحِ القليلِ، لا يعدو في ذلك بعضُهم على بعضٍ، ولا يظلمُ القويُّ الضعيفَ، ولا يأخذُ الرَّجُلُ المناسب (بكَسْرِ الميم) الفُرصَةَ من الرَّجُلِ المُناسَب (بضمِّ الميم).

وما أكثر الناسِ عندهم الحرصُ الفاجعُ على وظيفةٍ مثاليَّةٍ بعوائدَ امتيازيَّةٍ، وإنّما يقنعُ الواحدُ منهُم بأنْ يذوقَ طعمَ الوظيفةِ، ويحلمُ بأنْ يكون عيشُه كَفافاً، وأنْ يرى المُرتَّبَ الشهريَّ الذي طالما سَمِعَ عنه، لكنَّه لم يرَهُ، ولم يَعرِفْ لَهُ مَذاقاً منذ كذا سَنَةٍ! يحتاجُ الواحدُ منّا إلى وظيفةٍ حتّى لا يضيقَ بالحياة ذَرعاً.. ولا يَسخطَ عليها.

فإذا ساقَ اللهُ له وظيفةً.. فَرِحَ بها، وحَمِدَ اللهَ، وأثنى عليه، وربَّما ادَّخَرَ راتبَ شهرين، أو أكثرَ؛ ليشتَرِيَ به قُرباناً يذبَحُه لِوجْهِ الله تعالى شُكراً له على هذه النِّعمة التي طالما كان ينتظرُها ويتمنَّاها ويرجُوها.

حقاً! ما أبسطَ مَطالبنا وأمُنياتنا!.. وما أصعبَ تحقيقَها!..

لقد أرادَ اللهُ تعالى بالناسِ خيراً؛ فلم يجعلِ الرِّزْقَ قسمَةً بَشريةً، وإنّما جعلَه كالهواءِ الذي يمتلئُ به الجوُّ! ويتنفَّسُه الناسُ جميعاً! وكمياهِ الأمطارِ والأنهارِ التي يستطيعُ الناسُ جميعاً أنْ يَشربُوا منها! وإذا ما ضاقَ الرِّزْقُ في مكانٍ اتسعَ في غَيرِه... والناسُ يعملونَ على كلِّ حالٍ، ويَصِلُونَ النهارَ بالليلِ في العملِ..؛ لأنَّهُم يُريدُونَ العيشَ بكرامةٍ، لا يُريدُونَ الارتزاقَ على فُتاتِ غَيرِهم..، أو إراقةَ ماءِ وُجوهِهم باستجداءِ فلانٍ.. وبالاقتراضِ من فُلانٍ..

لقد أنفتْ أنفُسهُم الأبيَّةُ العيشَ كالأنعامِ.. ولسانُ حالِهم:

لا تسْقِني ماءَ الحَياةِ بذلَّةٍ	بلْ واسْقِني بالعزِّ كأسَ الحَنظَلِ
كأسُ الحياةِ بذلَّةٍ كجَهنَّم	وجَهَنَّمٌ بالعزِّ أطيبُ منــــــزلِ

وقد نشأْنا وترَعرَعنا على أنوارِ أحاديثَ شريفةٍ سمعناها، وقرأناها، وحفظناها؛ تُحدِّثُنا أنَّ النبيَّ عليه الصلاةُ والسلامُ أطعمَ وسقَى الأعدادَ الغفيرةَ من أصحابه حتَّى أشبعَهُم اللهُ تبارك وتعالى وأروَى ظمَأَهُم بالقليلِ الضئيلِ من الطعامِ والشرابِ الذي رُبَّما لم يكُن يكفي الرَّجُلَ، أو الرَّجُلَين؛ فآمَنَّا بأنّ القليلَ يجبُ أنْ يكفي الكثيرَ؛ لكنْ بشرطِ إرادة

العدالةِ والمساواةِ بينَ الناسِ في الحُقوقِ والواجباتِ، وألاّ يمتازَ بعضُهم من بعضٍ إلاّ بالتقوى، وآمنَّا بأنَّ البركةَ تحلُّ ضَيفاً كريماً على أعمالِ الشريكَينِ ما داما مُلتزمَينِ بأخلاقياتِ العملِ المُشتركِ، وواجباتِ الأمانةِ؛ فإذا خانَ أحدهُما الآخرَ فرَّ الضيفُ من بينهما، وكذلك الشؤونُ الاقتصاديةُ يحتاجُ قاداتُها إلى الإيمانِ بهذه التعليماتِ النبويةِ، وألاّ ييأسُوا من رَوْحِ اللهِ، وأن يُعرِضُوا عن الهَزلِ إلى الجدِّ، وعن الباطلِ إلى الحقِّ، وأنْ يَصنَعُوا من الأزمةِ فُرصَةً ما وَجدُوا إلى ذلكَ سبيلاً؛ لأنّنا نرى البطالةَ حريقاً يلتهمُ الأخضرَ واليابسَ، ويجبُ أنْ يُطفأَ !

الاقتصادُ الصحيحُ لا يُحدثُ المُعجزاتِ، ولا يُوجدُ المُستحيلاتِ، ولا يَحشرُ الأعدادَ الكبيرةَ من الطلَبةِ أو الموظَّفينَ في الأماكنِ الضيِّقةِ..

الاقتصادُ الصحيحُ لا يُقلِّص الرَّواتبَ؛ لأنّه بتقليصِها تذوبُ الهِمَّةُ، ويَفتُرُ النشاطُ، وتنتزِعُ من العملِ رُوحَهُ..

الاقتصادُ لا يعني كثرةَ جَمْعِ الصَّدقاتِ، ونشاطِ حركةِ التبرُّعاتِ؛ فهذه – بصَرفِ النظرِ عن دوافعِها الباطنيَّةِ..– عواطفُ كريمةٌ، وإصلاحُ شُؤونِ الطبَقاتِ الفقيرةِ والمَطحونَةِ؛ بل (المَسحوقةِ) لا يكون بالتَّصدُّقِ والإحسانِ؛ وإنّما بتوفيرِ مَصدرِ العيشِ الحلالِ الذي يُؤمِّنُ لها غذاءَها اليوميَّ، ويُصلِحُ لها حياتَها المادِّيَّةَ، ويَحضُرني هُنا المَثلُ القائلُ: (لا تُعطِني سمَكةً! ولكنْ علِّمْني كيف اصطادُها).. الاقتصادُ الصحيحُ أعمالٌ مَدرُوسةٌ، وتخطيطاتٌ جادَّةٌ مَوضوعةٌ برُؤىً ثاقبةٍ، وبصيرةٍ نافذةٍ، وعزيمةٍ ماضيةٍ.

وأخيراً وقبلَ الفراغِ من هذا المقال أودُّ ختمَه بهذه الكلمةِ المُوجَزةِ:

إنّ راعيَ الأنعامِ يَحرصُ على الاعتناءِ بقطيعِ الأغنامِ؛ من شِياهٍ، وخِرافٍ ومَعزٍ..، وبقطيعِ الأبقارِ..، وبقطيعِ الإبلِ..، ويتخيَّر لها أوفرَ المراعي وأطيبَها، وأفضلَ الأعلافِ وأمرئِها، ومَعهُ عصاً ناعمةٌ يَسُوسُها بها؛ لئلاّ تَزِلَّ أقدامُها فتقتَحِمَ حِمَى الآخَرينَ، ويُراقبُها كالصَّقْرِ بعَينٍ ساهِرَةٍ؛ لئلاّ تَعبَثَ بها الذئابُ (ذئابُ الحَيوانِ لا ذئابَ الإنسانِ)؛ فتَعيثَ في مَراعيها وحُقولِها خراباً وفساداً، وتراه يَحوطُها بالرِّعايةِ الحَثيثةِ، ويَعطِفُ على كبارِها، ويَحنُو على صِغارِها، ويَقسُو على أعدائِها، ويتفرَّغُ لحوائجِها، ويتفقَّدُ أحوالَها كما تتفقَّدُ المُرضِعُ أحوالَ رضيعِها، ويَعدِلُ بينَها، وكُلُّها في نظَرِه، وفي مَقامِه وعندَه سَواءٌ: لا غامرَ ولا مَغمُورَ، ولا قاهرَ ولا مَقهُورَ، ولا خيارَ ولا فقُّوس...

ولو تفحَّصتَ أحوالَ راعيها وسائسِها لرأيتَه أغبرَ أشعثَ، نحيلاً نحيفاً، طاويَ البطنِ، بارزَ الأضلاعِ، أمَّا رعيَّتُه من الأنعامِ فما شاءَ اللهُ ! سَمينَةٌ ! فارهَةٌ ! جذَّابَةٌ ! مُمتلِئَةٌ شِبَعاً وَرِيّاً !؛ لأنّه يعلَمُ عِلْمَ اليقينِ أنَّه: "لا فائدةَ في أنْ يكونَ جَسَدُ الراعي رشيقاً، وجَسَدُ الرَّعيَّةِ مُترهِّلاً"، و"لا فائدةَ في أنْ يكونَ الراعي في صِحَّةٍ جيِّدَةٍ بينما الرَّعيةُ في العنايةِ المُركَّزَةِ".

معنى كلمة (فقوس): (الفقوس أو القثاء: نباتٌ يُشبِهُ الخيارَ؛ لكنه أفتحُ منه لوناً، وأطولُ منه حجماً، وأقلُّ منه منزلةً في عالَمِ المطلوباتِ الاستهلاكيةِ).

(قلْ هذهِ سَبيلي أدعُوا إلى اللهِ على بصيرةٍ) والحمدُ للهِ ربِّ العالَمينَ.